﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء:56]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا تَـهـاونَ ولا مُـداراةَ في مواجهَةِ الباطِلِ والشِّرْكِ

لَمّا ظنَّ القومُ أنَّ إبراهيمَ ﷺ يمازحُهم ويلاعبُهم بما خاطبَهم به في أصنامِهم بقوله: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أظهرَ ﷺ ما يعلمون به أنّه جادٌّ في قوله، وفي حرصِه على إظهار الحقِّ الّذي هو التَّوحيد، وذلك من خلال القولِ أوَّلًا ثمَّ الفعلِ ثانيًا فقال لهم: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَطَرَهُنَّ﴾: (فطر) أصْلٌ يَدُلُّ على فتْحِ شَيْءٍ وإبْرازِه، والفِطْرَةُ: التي طُبِعَتْ عليها الخليقةُ من الدّين[2]، وفطَرَ الشَّيءَ يَفْطُرُه: شَقَّهُ، وتَفَطَّرَ الشّيءُ: تَشَقَّقَ، وتَفَطَّرَتِ الأرض بالنَّباتِ إذا تَصَدَّعَتْ، وفَطَرَ الأمرَ: ابْتَدَأه وأنْشَأه، وفَطَرَ اللهُ الخَلْقَ: خَلَقَهُم وبدأهم، والفِطْرةُ: الابْتِداءُ والاخْتِراعُ[3]، ومعنى قوله ﴿فَطَرَهُنَّ﴾: خَلَقَهُنَّ وأبْدَعَهُنَّ[4]، أي: الّذي خلقَهُنّ من عدمٍ وأنشأهُنَّ في هذا الوجود ابْتداءً من غيرِ مثالٍ سابقٍ يُحتذى، وشقّ بهما ظُلمةَ العدم[5].

2) ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: (شهد) أصْلٌ يدلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ[6]، يقال: شَهِد الحادثَ: عايَنَه، وشهدَ الشّاهدُ عند الحاكم: بَيَّنَ ما يَعْلَم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب أو التّفسير الكبير: 22/ 153.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (فطر).
(4) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 296.
(5) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/ 91، وأبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4883، والهَرَرِيّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 18/ 122.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).

وأظْهره[1]، والشُّهودُ والشَّهادَةُ: حضورٌ مع مُشاهدةٍ، والشَّهادَةُ: قولٌ صادرٌ عن علمٍ حصلَ بمشاهدةِ بصرٍ أو بصيرةٍ، وقد يُعبَّر بالشّهادةِ عن الحكم، وعن الإقرار[2]، والشَّهادَةُ: خَبرٌ قاطعٌ، والشّاهِدُ: العالمُ الّذي يُبَيِّنُ ما عَلِمَهُ، والشَّهيدُ مِنْ أسماء اللّه: الأمينُ في شَهادَتِهِ، والحاضرُ، والّذي لا يَغيب عَنْ عِلْمه شَيْءٌ[3]، ومعنى ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ في الآية، أي: من الشّاهِدينَ على أنَّهُ ربُّ السّمواتِ والأرْضِ، وأنا أُبَيِّنُ بالدَّليلِ ما أقول[4]، فأنا من العالِمينَ به المُتَحَقِّقين له والمبرهنين عليه، فإنّ الشّاهدَ على الشَّيْءِ هو مَنْ كانَ عالِمًا بِهِ، مُبَرْهِنًا عليه، مُبَيِّنًا لَهُ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ ما في الكونِ يشهدُ بوحدانيّةِ الخالقِ المدبِّرِ وبطلانِ عبادةِ أوثانٍ مصنوعةٍ

أضْربَ إبراهيمُ عن سُخفِهم وشركِهم هذا، وقطعَ عليهم طَريقَ الهزْلِ واللّعبِ الّذي أرادوا أن يسوقوه إليه، ومضى يُقرِّرُ الحقَّ الّذي يدعوهم إليه: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ إنّه الربّ الّذي يجب أن يوحَّد، وأن يُعبَد، وإنْ كانوا لا يرَونه كما يرون آلهتهم المزعومة؛ فإنّ آثارَه تدلُّ عليه، وآياتُه في الكونِ تشهدُ على عظمته وجلاله وقدرته وعلمه، فكان إبراهيمُ أوَّلَ الموحِّدين وأوَّلَ الشّاهدين على ذلك[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة حرف الإضراب ﴿بَل﴾:

إبطالٌ وتسخيفٌ من إبراهيمَ لقولِ المشركين وفعلِهم

ابتدأ إبراهيمُ ﷺ كلامَه بحرف ﴿بَل﴾ في قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمْ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شهد).
(2) الرّاغب، المفردات: (شهد)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 295.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(4) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 296.
(5) البَيْضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 54، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 487.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 913.

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ فأفادَتِ الإضرابَ الإبطاليَّ، والّذي وقعَ عليه الإبطالُ: إمّا أنْ يعود إلى مقالهم منِ اعتقادِ كونِها أربابًا لهم كما يُفصِحُ عنه قولُهم في سورة أخرى: ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١﴾ [الشعراء:71]، ففنَّد دعواهم بأنّ هذه الأصنامَ أربابٌ وآلهةٌ، ويكون التّقدير: (ليس الأمرُ كذلك)[1]؛ بأنّي مثلُكم في عبادتكم للأصنام واتّخاذها أربابًا، بل إنَّني أعبدُ ربَّ السّموات والأرض، الخالقَ لكلِّ شيء، والمستحقَّ وحده العبادةَ دون سواه[2]، أو أنّه يعودُ إلى ادِّعائهم أنَّ كلامه معهم هزْلٌ ولَعِبٌ، فأقام البرهانَ على ما ادّعاه بانيًا على ما تقديرُه: ليس كلامي لَعِبًا، بل هو جِدٌّ، وهذه التَّماثيلُ ليستْ أربابًا[3]، وإنَّني جئتكم بالحقِّ الَّذي لا ريبَ فيه.

إيثار لفظ الرُّبوبيَّة في قوله ﴿رَبُّكُمۡ رَبُّ﴾:

تدبيرهُ سبحانه لـلـكـونِ كـلِّـه يستلزمُ أحَقِّيَّتَهُ بـاخـتـصـاصِـه بالعبادة

آثرَ النّصُّ القرآنيُّ كلمةَ ﴿رَبُّكُمۡ﴾، و﴿رَبُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتّرغيبِ بتذكيرهم بالنِّعم، واستمالتِهم نحو الحقّ، واستنزالهم إلى قبوله، وأنّ جميعَ ذلك مَسوقٌ لمصالحهم، فالرُّبوبيّة فيها معنى الإحسان والعطاء والرَّحمة والتَّربية، وفيها إشعارٌ باللُّطف ما لا يخفى[4]، وللإيذانِ بأحقّيَّةِ الأمرِ بعبادته، فإنَّه الخالقُ لكلّ شيءٍ، الّتي من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدون والسّموات والأرض[5]، والمدبِّرُ لأمورِكم، وهو مَنْ ربّاكم تحت ظلالِ عَطْفه، وأنعمَ عليكم بجزيلِ برّه ولطفِه، وهو جديرٌ باختصاصِه بالعبادةِ، لا مَنْ كانَ بمعزلٍ عن كلِّ ذلك[6]؛ لأنّ فيها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 73.
(2) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4883.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 436، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 96.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/ 136.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 73.
(6) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 436.

معنى الشّكر وإظهارَ الاحتياجِ إليه سبحانه[1]، وفي هذا إرشادٌ إلى أنَّه ينبغي لهم أنْ يرعَوُوا عن غَيّهم، ويعلموا مَنْ يستحقُّ العبادة، فيعبدونه ويخضعونَ له، وبذلك يهتدون إلى الطَّريقِ السَّويِّ[2].

فائدةُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيَّة إلى ضمير الأبِ والقوم:

استمالةٌ من إبراهيم لأبيه وقومه وتطمينٌ لقلوبهم إنْ آمنوا بربّهم

أضافَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ الرّبوبيِّة إلى أبيه وقومِه في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ استمالةً لقلوبهم بالإشارةِ إلى مدى عنايةِ الله بهم وإحسانه ورحمته ولطفِه، وفي هذا تطمينٌ لقلوبهم، وإزالةٌ للمخاوفِ الَّتي قد يتوقَّعونها من تركِ عبادةِ الأصنام، فمن ربّاكم وتولَّى أمركم لا يمكن أنْ يتخلَّى عنكم، أو يظلمَكم، ويجورَ عليكم، فهو خالقُكم ومالكُ أمركم ورازقكم، ومالكُ العالمين[3]، وفيه إشارةٌ إلى الشَّرفِ الّذي ينالوه إنْ أخلصوا له العبادةَ، كما فيه تعريضٌ بهم إنْ عدلوا عن هذا الشّرف وأصرّوا على عبادةِ أوثانٍ لا تضرُّ ولا تنفع.

وجه تكرار لفظ الربِّ:

تقريرُ إبراهيم لمعنى الرُّبوبيَّةِ ومقتضياتها لَفْتًا لانتباه قومه

كرَّرَ البيانُ القرآنيُّ كلمة ﴿رَبُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ ولم يقل: (بل ربُّكم خالقُ السَّموات والأرض وأنا على ذلكم من الشّاهدين) وذلك أوّلًا تقريرًا لمعنى الرُّبوبيَّةِ ومقتضياتها في السّمواتِ والأرض، وهذا لم يكنْ ليتحقّق لو لم يعبِّر بقوله (ربُّ السموات والأرض)، فهو الخالقُ سبحانه للسّمواتِ والأرض، والمدبِّر لشأنهما، وثانيًا تأكيدًا لإعلاءِ شأنِ الرُّبوبيَّةِ الَّذي ينبغي أنْ يلفتَ انتباهَهم، ويعودوا من خلاله إلى صوابهم ورُشدهم، فربُّ السَّموات والأرضِ، وربُّ الخلق كلِّهم هو ربُّهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 326.
(2) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 17/ 45.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 58.

نكتة تقييد الرُّبوبيّة بالسَّموات والأرض:

كلُّ ما في السّموات والأرض من خَلْقٍ وتدبيرٍ يَنطقُ بوحدانيّة الخالقِ المدبّر

قيَّد النَّصُّ القرآنيُّ الرُّبوبيّةَ بالسَّموات والأرضِ في قوله: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ للإشارةِ إلى أنّ إبراهيمَ ﷺ أرادَ أنْ يُعلِمَ أباه وقومَه بأنَّ ربَّهم هو الربُّ العظيم الَّذي خلقَ السَّمواتِ والأرض، والّذي يُدبّر أمرَهما، وليستْ تلكَ التَّماثيلُ التي لا نزاعَ عندهم في أنَّها لم تَخْلُقِ السَّمواتِ والأرض، بل هي مصنوعةٌ منحوتةٌ من حجارةِ الأرض، فما هي إلّا مربوبةٌ مخلوقةٌ، وليستْ أربابًا ولا خالقة[1]، وللإشارةِ كذلك إلى ضرورةِ النَّظر في السَّمواتِ والأرض، لكونِهما من طُرقِ الاستدلال بما فيهما من عظيمِ خَلْقِه، وتدبيره سبحانه على إثباتِ الخالقِ الواحد، بما يؤدّي النَّظرُ فيهما إلى العلمِ بحقيقةِ الرَّبِّ الواحدِ الَّتي تُمَيِّزُه من حقائقِ المخلوقات[2].

سرُّ التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

الربُّ الّذي فطرَ وأبدعَ هو المستحقُّ للعبادةِ

عبّر النَّصُّ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ ووصفَ به كلمةَ ﴿رَبُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ زيادةً في التّعريفِ بالربّ العظيم، وتركيزًا على الصِّلة؛ لأنّ القرآنَ يأتي بالاسمِ الموصول عندما تكون صلتُه هي التي عليها مدارُ الحكم، ومن ثمَّ تكون فائدةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته هي الإيماءُ بعِلَّةِ استحقاقِ الله الرُّبوبيَّةَ، وهي إمّا خَلْقُه السَّموات والأرض، أي إنَّ الخالقَ الّذي خلقها لمنافعِ العبادِ هو الّذي يَحْسُنُ أنْ يُعبَد؛ لأنَّ مَنْ يَقْدِرُ على ذلك يَقْدِرُ على أنْ يَضُرَّ وينفعَ في الدُّنيا بالتَّوفيق والتَّأييد، أو باستعجالِ العقوبة، وفي الآخرةِ بالعقابِ والثَّواب[3]، وإما خَلْقُه سبحانَه لأصنامِهم الّتي يعبدونها، فهي من جملةِ المخلوقاتِ الّتي خلقها الله سبحانه، فكيف تكون آلهةً؟!!! على الخلافِ في عَوْدِ الضَّمير (هنَّ).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 96.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 117.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 153.

إيثارُ صيغة الماضي في ﴿فَطَرَهُنَّ﴾:

تذكيرٌ لعَبَدَةِ الأصْنام أنَّ مَنِ ابْتدأ خَلْقَ ما صُنعتْ منه هو مَنْ يستحقّ العِبادَةَ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بفعل ﴿فَطَرَهُنَّ﴾ بصيغةِ الماضي؛ لتحقُّقِ وقوعِ الخلقِ ومرورِ الزَّمن عليه، وجريًا على الدَّلالة الأصل لصيغة الماضي على زمنِ وقوعِ الحدثِ قبلَ زمنِ التَّكلُّم، وفَطْرُ السمواتِ والأرض ليس فيه معنى التجدّد، وجاء ذلك في مقابلِ ذِكْرِ عبادتهم للأصنام؛ لأنَّ الأصنامَ من آثارِ هذا الفَطْرِ الَّذي كان وتحقَّق؛ إذ هي مصنوعةٌ من تُربةِ الأرضِ ومائها، أو على هيئةِ كواكبِ السّماء من الشّمسِ والقمر، فاللّهُ قد خلقَ السَّمواتِ والأرضَ قبل أنْ تُصنعَ هذه التّماثيل، وقبل أنْ يَتَوَجَّهوا إلى عبادتها واتِّخاذها من دونِ اللّه آلهةً، وفي هذا إبطالٌ لِفِعْلِهم.

سرُّ إيثار التّعبير بـ﴿فَطَرَهُنَّ﴾:

إثباتُ الأسْبَقيّة في خَلْقِ السّمواتِ والأرضِ أدلُّ على معنى الربوبيّة

عبَّر النَّصُّ القرآنيُّ بكلمةِ ﴿فَطَرَهُنَّ﴾ دون خَلَقهُنّ أو جَعَلَهُنّ؛ لأنّ الفَطْرَ تكوينُ ذواتِ السّموات والأرض فهو أدقُّ من الجعل، كما لم يقل: (خَلَقَهُنَّ) مع أنّ الخلقَ في اللّغة يعني إيجادَ الأشياء بتقديرٍ ونظامٍ لا جُزافًا[1]، وعلى مثالٍ لم يُسبقْ إليه[2]، أي إبداعُ الشّيء من غيرِ أَصلٍ ولا احتذاءٍ[3]، لأنّ مَقْصِدَ الآياتِ إثباتُ الأسْبَقيّة في خَلْقِ السّموات والأرضِ قبل أنْ يُخْلَقوا، وقبل أنْ تُصنعَ أصنامُهم، قال ابن عبّاس ﷺ: ما كنتُ أعرف معنى فاطِرِ السَّماواتِ حتى اختصم إليّ أعرابيّان في بئرٍ فقال أحدُهما: أنا فطرتُها أي اخترعتُها وأنشأتُها[4]، وفي هذا السّياق تكونُ الإشارةُ بهذا اللّفظ أنسبَ لِما مرّ ذِكْرُه في بدايةِ السّورة من شَقِّ الأرضِ مِنَ السَّماء، أو شَقِّ الوجودِ كلِّه من وحدةٍ كانت تجمعُه، في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 136.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلق)، والفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 566.
(4) ابن عطيّة، المُحَرَّرُ الوجيز: 2/ 273.

أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء:30][1]، أو شَقِّ ظلمةِ العدم بهما[2]؛ لأنَّ كلمةَ (فَطَرَ) تعني الشَّقَّ والفَتْقَ، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ [الملك:3] أي من شقوق[3].

عَوْدُ الضَّمير في ﴿فَطَرَهُنَّ﴾:

في مرجعِ الضّمير (هُنَّ) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ قولان:

في بيان أنّ مَنْ يُخلَقُ لا يَخلِقُ حُـجَّـةٌ عـلى المشركين

أحدُهما: أنّه يرجعُ إلى السَّموات والأرض، لكونها لَمّا لم تبلغْ في العددِ الكثيرَ منه جاء الضَّميرُ ضميرَ القلّة[4]، وفي عَوْدِ الضَّمير على السّموات والأرض يتحقّقُ وجودُ وصفِ اللّه بالإيجادِ لهنّ إثرَ ربوبيّته تعالى لهنّ، بما يشيرُ إلى التَّأكيدِ والتَّنبيه على هذا الإيجاد لهنّ بما فيهنَّ منَ المخلوقاتِ الَّتي من جملتها أنتم وآباؤكم وتماثيلكم لا يكون بمعزلٍ من الربوبيّة[5]، **والقولُ الآخر**: أنّه يرجعُ إلى التَّماثيل؛ لأنَّه أدْخَلُ في تَضْليلِهم، وأظهرُ في إلزام الحجَّة عليهم[6]، لِما فيه من التَّصريحِ المُغني عن التَّأمّلِ في كون ما يعبُدونه من جملةِ المخلوقاتِ التي خلقها اللّهُ سبحانه، فكيف تكون آلهة؟![7].

معنى الواو في قوله ﴿وَأَنَا۠﴾:

جَمعٌ بين إبطالِ إبراهيم لربوبيّة تماثيل قومه وشهادتِه على ربوبيَّةِ الله سبحانه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عاطفة[8]، عطفتْ الجملة على جملة ﴿بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ ففيهما استمرارٌ لمحاجَّة إبراهيمَ عليه السلام قومَه مع تنوّع حجّته، فبعد أنَّ أبطلَ

(1) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4884.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 436.
(3) ابن عطيّة، المُحَرَّرُ الوجيز: 2/ 273.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 44، وقد قطعَ به ابن عاشور في التّحرير والتّنوير: 17/ 96.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 73.
(6) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 122، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 153.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 73، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 12/ 539.
(8) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/ 42، والدعاس، إعراب القرآن: 2/ 289.

اعتقادهم بأنّ تماثيلَهم أربابٌ، أو أبطلَ ادِّعاءهم أنَّ كلامَه معهم هزْلٌ، وأقام البرهان على ما ادّعاه بأنّ ربّهم ربُّ السَّموات والأرض أكْمَلَ بشهادتِه على ذلك وامتثالِه لتحقيقِ العبوديَّةِ لربِّهم الحقِّ قولاً ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فأفادتِ الواوُ في الآيةِ الجمعَ بين إبطالِ إبراهيمَ لربوبيّة تماثيلِ قومِه وإقامةِ البرهانِ على ربوبيّة اللّه سبحانَه، وبينَ شهادةِ إبراهيمَ على تِلكمُ الرُّبوبيَّةِ.

دلالة التَّعبير بـ﴿عَلَىٰ﴾:

توكيد إبراهيم لعِظَم شهادته على ربوبيَّة الله

عبّر البيانُ القرآنيُّ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ليُفيدَ معنى الاستعلاءِ المجازيِّ؛ ليُكَنّي به عن تَمَكُّنِ الشَّهادة عندَه على ربوبيَّة اللّه تعالى، وفي هذا زيادةُ تَوكيدٍ لعِظَم هذه الشَّهادة، ولأنَّ المقامَ مقامُ الرُّبوبيَّة، ولأنّ السّياقَ سياقُ عُلُوٍّ ورفعةٍ وعظمةٍ لمنْ يشهد بربوبيَّته، لهذا ناسبَ أنْ يُذكَرَ حرفُ الاسْتعلاء ﴿عَلَىٰ﴾.

سرّ التّعبير باسم الإشارة الخاصّ بالبعيد:

تعظيمُ إبراهيم للمشهودِ عليه تنبيهٌ للمخاطبين على أهمّيَّته

جاء البيانُ القرآنيُّ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُم﴾ المُشار به للبعيد في قوله: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الَّذي يشيرُ إلى ربوبيَّةِ اللّه تعالى ووصفِه بالاختراعِ والخلْقِ لهذا العالم[1]، وجاء اسم الإشارة بصيغةِ البُعد، مع أنّ المُشار إليه قريبٌ سبقَ ذكرُه للتوِّ في قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾؛ كنايةً عن تعظيم المشهود عليه، وبُعْدِ منزلتِه ومكانته، وتنبيهًا للمخاطَبين على أنّه الأمرُ البيّنُ.

وفي استعمال صيغةِ الجمع ﴿ذَٰلِكُم﴾ دون (ذلك)؛ مراعاةٌ للمُشار إليه ﴿رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ وهو جمعٌ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 444.

ومراعاةٌ للمخاطَبين وهم أبوه وقومه؛ إذ هم جمعٌ لا فردٌ[1]، فضلًا عمّا في التّعبيرِ بالجمعِ من معنى التّوكيد[2].

علّة تقديم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾:

قدَّم البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ على ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ في قوله: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ للاهتمامِ بالمقدَّمِ وهو المُشارُ إليه في قوله ﴿ذَٰلِكُم﴾ وللتّشويقِ بالمؤخَّرِ وهو الشَّهادة بربوبيَّةِ اللّه سبحانه[3]، وذلك على اعتبارِ شبه الجملة مُتَعَلِّقَةً باسم الفاعل ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ من باب التَّوسع والتَّجوّز على خلافِ الأصل، بأنْ تكون (أل) في اسمِ الفاعل ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ موصوليَّةً بمعنى (الَّذين) وليستْ للتَّعريف،[4]، وأمّا إذا تعلّقَ بمحذوف تقديرُه: وأنا شاهدٌ على ذلكم من الشّاهدين، أو على جهةِ البيان، أي (وأنا أعني على ذلكم)، فلا يوجد تقديم في الآية.

بيانُ إبراهيمَ لأهمّيَّة ربوبية الله المشار إليها

معنى حرف الجر ﴿مِّنَ﴾:

جاء النَّصُّ القرآنيُّ بحرف ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ لإفادةِ معنى التَّبعيض، والمقصودُ أنَّ الّذين يشهدون على الرُّبوبيَّةِ كثيرون، وأنا بعضٌ منهم[5]، والمراد بـ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أنّهم الّذين شهدوا بتوحيد اللّه بالإلهيّة في مختلفِ الأزمان أو الأقطار، وليس من هُم في زمانه؛ إذ لم يكنْ يومئذٍ في قومه من يشهدُ ببطلانِ إلهيَّةِ أصنامهم[6].

تبعيضٌ يدلُّ كَثرةِ الشّاهدينَ بتوحيدِ الله في مختلفِ الأزمان والأقطار

نكتة التّعبير باسم الفاعل المجموع ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التَّعبيرَ بصيغةِ اسم الفاعل ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ في

(1) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4884.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 17/ 56.
(3) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4884.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 444، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/ 521.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 444.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 96.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ لأنَّ اسمَ الفاعل يدلّ على الدَّوام والثُّبوت والاستمرار، بما يُعطي للمعنى مزيدًا من المبالغةِ لثبوتِ ودوام الشّهادة من إبراهيم ﷺ النّاتجة عن عِلْم يُشبهُ عِلْمَ المشاهدَةِ والمعاينة؛ فالدَّليلُ عنده يُثبِتُ اليقينَ كالمعاينةِ الَّتي يراها ويشهدُها، أي: منَ العالمينَ به على سبيلِ الحقيقةِ المُبرهنين عليه[1].

شهادةُ إبراهيمَ والمؤمنينَ على ربوبيّةِ الله دائمةٌ ثابتةٌ لا تزولُ ولا تتغيَّرُ

وجاء بصيغةِ الجمع ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ للدّلالةِ على كثرةِ الشّاهدين على توحيدِ الله على مرِّ الزمان، فإبراهيمُ واحدٌ من زُمرةِ هؤلاء الشّاهدين، والمعنى: ما قلتُه أمرٌ مفروغٌ منه، وعليه شهودٌ كثيرون، فهو مَقالٌ مصَحَّحٌ بالشُّهود[2]، فضلًا عن أنّ الجمعَ أبلغُ من كلمةِ (شاهد)[3]؛ إذِ الشَّهادةُ من الجماعةِ ليستْ كالشَّهادةِ منَ الواحد، فهي أثبتُ وأرسخُ وأدوم، وهو كذلك مُناسِبٌ للسّياق الّذي وردَ بصيغة الجمع: ﴿أَنتُمْ﴾، ﴿عَٰكِفُونَ﴾، ﴿وَجَدْنَآ﴾، ﴿ءَابَآءَنَا﴾، ﴿عَٰبِدِينَ﴾، ﴿ٱللَّٰعِبِينَ﴾، ﴿رَّبُّكُمْ﴾، وللفاصلةِ الغالبةِ في آياتِ سورة الأنبياء.

بلاغة حشد المؤكّدات في جملة الفاصلة:

المبالغةُ في تأكيدِ شهادةِ إبراهيم بيانٌ بأنّ ربوبيّةَ الله أمرٌ مفروغٌ منه محقَّقٌ بالشّهود

اشتملَتْ جملةُ الفاصلة ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ على عدّةِ مؤكِّدات، وهي: التّعبيرُ بالضّمير (أنا) دون قولِه (وأشهد على ذلك)، ممّا جعلَ الجملةَ اسميّةً تفيدُ الثُّبوتَ والاستمرارَ وقوّةَ الحكم وبقاءَه، فشهادةُ إبراهيم ثابتةٌ لا تتبدّل، فضلا عن أنّ التَّعبيرَ بـ(أنا) يفيد تأكيد إبراهيم لعلْمِه بذلك؛ ليمنَحهم الثِّقةَ بأنَّه المرشدُ الأمينُ عندهم، وأنَّه لا يَكْذِبُهم فيما يقولُ[4]، ويُفيد كذلك تأكيدَ إعلامِ إبراهيم لهم بأنّه مُرْسَلٌ منَ الله لإقامةِ دين التّوحيد؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 73، وأبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4884.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 444.
(3) حاشية القُونَويّ: 12/ 540.
(4) أبو زَهرة، زَهرة التّفاسير: 9/ 4884.

لأنّ رسولَ كلِّ أمّةٍ شهيدٌ عليها، كما قال تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء:41][1].

والتّعبيرُ باسمِ الفاعل مجموعًا ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وباسمِ الإشارة مجموعًا ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾، وتقديمُ شبه الجملة ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ﴾؛ دالٌّ على الاهتمامِ بالمقدَّم، والتّشويقِ للمؤخَّر؛ فضلًا عن أنّ استعمالَ لفظِ الشهادة يفيدُ المبالغةَ في التأكيدِ والتحقيق، كقول الرجل إذا بالغَ في مدحِ أحدٍ أو ذمِّهِ: أشهدُ أنَّه كريمٌ أو ذميمٌ، ويفيدُ أنّ إبراهيمَ قادرٌ على إثباتِ ما ذكره لهم بالحُجَّة، فالدَّليل عنده يُثبِتُ اليقينَ كالمعاينةِ الَّتي يراها ويَشْهَدُها[2]، وأنَّه ليس مثلَ قومِه الّذينَ اكْتَفَوا بقولهم: أنَّهم وجدوا آباءَهم كذلك يفعلون[3].

فائدة الجمع بين الدَّليل العقليّ والدَّليل السَّمعيّ في جواب إبراهيم لقومه:

حشدُ الأدلَّة من إبراهيمَ مبالَغةٌ في إبطالِ عقيدةِ قومِه وإثباتِ ربوبيّة الله

جمعَ إبراهيمُ عليه السلام في رَدِّه على أبيه وقومه في قوله تعالى: ﴿بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ بين الدّليلِ العقليِّ والدّليل النقليِّ؛ مبالغةً في إبطالِ ما ادّعاه قومه من ربوبيّة التّماثيل، وإثباتِ ربوبيّة الله سبحانه، أمّا الدَّليل العقليُّ، فإنَّه قد علمَ كلُّ واحدٍ أنَّ اللّهَ وحدَه الخالقُ لجميعِ المخلوقات، والمدبِّرُ لهنَّ، بجميع أنواعِ التَّدبير، فيكون كلُّ مخلوقٍ مفطورًا مدبَّرًا متصرَّفًا فيه، ويدخلُ في ذلك جميعُ ما عُبِدَ من دون اللّه؛ فهل يليقُ بذوي الألباب والنُّهى أنْ يَعبُدوا مخلوقًا متصرَّفًا فيه؟!! لا يملكُ نفعًا ولا ضَرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ويَدَعوا عبادةَ الخالقِ الرّازق المدبِّر؟!! وأمّا الدَّليل السَّمعيُّ: فهو المنقولُ عن الرُّسل عليهمُ الصَّلاة والسَّلام، فإنَّ ما جاؤوا به معصومٌ لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 96.
(2) زَهرة التّفاسير: 9/ 4884.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 153.

يُغَلَّطُ، لأنَّه لا يُخْبِرُ بغيرِ الحقِّ، ومِنْ ذلك شهادةُ الرُّسلِ على ذلك خُصوصًا أنَّها من واحدٍ مِن أُولي العزمِ، وهو خليلُ الرَّحمن[1].

بلاغة المقابلة في الآية:

اتّهامٌ لإبراهيمَ بالهزلِ قابَلَهُ إعلامٌ منه بأنّه مُرْسَلٌ من الله لإقامةِ دينِ التّوحيدِ

قابلَ البيانُ القرآنيُّ جوابَ إبراهيم ﷺ بأنّه مُرْسَلٌ من الله لإقامةِ دينِ التّوحيدِ ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ اتّهامُ قومه له بالهزلِ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ من حيثُ الأسلوبُ والتَّركيبُ بما يُحقّقُ جمالًا وتمامًا في المعنى؛ أمّا من حيثُ الأسلوبُ فالكنايةُ في كلا الموضعين؛ إذْ ليس المقصودُ باللّعبِ اللَعِبَ الحقيقيَّ، وليس المقصودُ بالشَّهادة الشَّهادةَ الحقيقيَّة؛ لأنَّه لا شهادةَ مِنَ المُدِّعي، بلِ اسْتُعيرتِ الشَّهادةُ لتحقيقِ الدَّعوى بالحجَّة والبرهان[2]، وأمّا من حيث التَّركيبُ؛ فبناءُ الخبر في الجملتَينِ على الضَّمير؛ كأنَّه قال: لستُ منَ اللّاعبينَ في الدَّعاوى، بل من العالمين فيها بالبراهين القاطعة والحُجَجِ السّاطعة كالشّاهد الَّذي تُقطَعُ به الدَّعاوى[3]، ويكون قولُه فاصلًا في النِّزاعات والقضايا، فلستُ مثلَكم أقول ما لا أقدرُ على إثْباته، فإنّكم لم تَقْدِروا على الاحْتِجاجِ على مذهبِكم، ولم تزيدوا على أنْ تقولوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف:22][4].

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: ص526، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/ 9578.
(2) الهَرَرِيّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 18/ 123.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 58.
(4) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 17/ 45.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»